٣ ـ جامع احمد ابن طولون

[حديث ألقى فى نادى النهضة فى ليلة القدر]

للأســـتاذ أحمد رمزى بك

فضل مصر فى سوريا ولبنان

يذكر المؤرخون الشيء الكثير عن هذا الجامع ، فيقولون : إن ابن طولون رأى الصناع يبنون فى الجامع عند العشاء ، وكان ذلك فى شهر رمضان . فقال : متى يشترى هؤلاء الضعفاء إفطاراً لعيالهم وأولادهم ؟ اصرفوهم العصر فصارت سنة بمصر معمولاً بها إلى اليوم

ويروى أنه فى يوم الجمعة التى صلى فيها ابن طولون لأول مرة ، قام الخطيب قدعا للخليفة العباسى وولده ونسى أن يذكر أمير مصر وعزيزها ثم تنبه لذلك فقال : « الحمد لله وصلى الله على محمد ، ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما ، اللهم واصلح الأمير أبا العباس احمد بن طولون مولى أمير المؤمنين »

* * *

ثم انتهت دولة آل طولون ، وزالت آثارهم ، فما بقى لهم سوى هذا الجامع الخالد يذكر الناس بهم وبأيامهم ، ومجدهم وهل كان مجدهم إلا مجد مصر ؟

ذكر صاحب النجوم الزاهرة من حوادث سنة ٢٩٢هـ « وزالت الدولة الطولونية وكانت من غرر الدول ، وأيامهم من محاسن الأيام »

وقال أيضاً : ولقد بكى الناس والشعراء دولة آل طولون وقالوا من المراثى الشيء الكثير وذكر ما قال فيهم اسماعيل ابن أبى هاشم :

قف وقفة بفناء باب الساج ... والقصر ذى الشرفات والأبراج

وربوع قوم أزعجوا عن دارهم ... بعد الإقامة أيما إزعاج

كانوا مصابيحاً لدى ظلم الدجى ... يسرى بها السارون فى الأدلاج

كانوا ليوثاً لا يرام حماهم ... فى كل ملحمة وكل هياج

فانظر إلى آثارهم تلق لهم ... علماً بكل ثنية وفجاج

وقال سعيد العاص :

وكان أبو العباس احمد ماجدا ... جميل المحيا لا يبيت على وتر

كان ليالى الدهر كانت لحسنها ... وأشراقها فى عصره ليلة القدر

وقال ابن أبى هاشم :

يا منزلاً لبنى طولون قد درسا ... سقاك صوب الغوادى القطر والمطرا

يا منزلاً صرت أجفوه وأهجره ... وكان يعدل عندى السمع والبصرا

بالله عندك علم من أحبتنا ... أم هل سمعت لهم من بعدنا خبرا ؟

لبيك يا ابن أبى هاشم لقد سمعت لهم خبراً ولكن بعد ألف عام من شعرك : إذ فى سنة ١٨٩٠ بينما كانت لجنة حفظ الآثار العربية تنقل بعض الأنقاض المحافظة على هذا الجامع العتيق ، عثرت على بعض قطع من الرخام ، جمعت ورتبت فتألف منها اللوح الموجود الآن وهو بالكتابة الكوفية جاء فيها بعد آيات قرآنية ما يأتى :

« أمر الأمير أبو العباس أحمد بن طولون مولى أمير المؤمنين أدام الله له العز والكرامة ، والنعمة التامة فى الآخرة والأولى ، ببناء هذا المسجد المبارك ، الميمون من خالص ما أفاء الله عليه ، لجماعة المسلمين ابتغاء رضوان الله والدار الآخرة ، وإيثاراً لما فيه تقية لدين ، وألفة المؤمنين ، ورغبة فى عمارة بيت الله وأداء فرضه ، وتلاوة كتابه ، ومداومة ذكره ، إذ يقول الله تقدس وتعالى : فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله... »

« فى شهر رمضان من سنة خمس وستين ومائتين »

وقد أجمع العلماء على أن هذه الكتابة أقدم كتابة تاريخها ثابت معروف من كتابات الآثار العربية

رحم الله صاحب الجامع وطيب ثراه

وتقلبت الليالى وتعاقبت الدول ودخل القائد جوهر على رأس جيش من إخواننا أهل المغرب فى خدمة دولة ناشئة ذات صولة ومجد وقوة ، وكانوا أهل دعوة وأتباع مذهب وأمامة . وقد دانت لهم دنيا المغرب ، ونزلت على إرادتهم الأمم . ألم توقع

ألويتهم على سردينيا وصقلية؟ ألم تدفع لهم مدن إيطاليا الجزية؟ ألم يمخر أسطولهم عباب البحار؟ وفي يوم الجمعة ١٨ ربيع الآخر سنة ٣٥٩ هجرية، دخل القائد المنتصر بعسكر كثيف جامع ابن طولون فأقام الجماعة، وجهر المؤذنون بآذان: حي على خير العمل، فكان أول آذان شجي جهر به في أرض الكنانة، وصلى بالقوم عبد السميع بن عمر العباسي، وخطب الناس وأطال. ويذكر المؤرخون أنه جاء وعليه قلنسوة وطيلسان دبسي، وأنه زاد عقب الخطبة المعتادة ما يأتي:

« اللهم صل على محمد المصطفى، وعلى علي المرتضى وعلى فاطمة البتول وعلى الحسن والحسين سبطي الرسول، الذين أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً. اللهم وصل على الأئمة الطاهرين آباء أمير المؤمنين. ودعا للقائد جوهر، وجهر باسم الله الرحمن، وقرأ سورة الجمعة، والمنافقين في الصلاة، وقنت في الركوع فكان يوماً تاريخياً خالداً في حياة مصر العربية التي دخلت في طور جديد بدأته بجامع ابن طولون

هذه ذكريات توحيها وقفة أمام المحراب الكبير، بأعمدته الرخامية ذات التيجان الأربعة، والتي تملك النفس حينما تنظر إلى ما هو من جمال الرخام الملون والفسيفساء المذهبة، ثم الكتابة الكوفية الفاطمية الفائقة الجمال في تنسيق الخط وتحريره. فإذا اتجهت إلى اليمين، فهناك محراب آخر من العهد الفاطمي، عليه اسم الأفضل والمستنصر، وهناك غير ذلك من آثار ذلك العهد، فإذا مررت بها فاذكر أياماً لهم، وترحم عليهم، فقد جد الفاطميون وأنشأوا وصانوا ولهم الأيادي البيض. وهم إن اختلف الناس فيهم وتباينوا في الحكم عليهم فنحن في زمن تعالى عن نزعات الماضي

(للحديث صلة)

أحمد رمزي

وزارة المعارف العمومية

تقبل العطاءات بمكتب حضرة صاحب العزة وكيل وزارة المعارف بشارع الفلكي بالقاهرة أو توضع باليد بمعرفة مقدميها بالصندوق المخصص للعطاءات بادارة المحفوظات بالوزارة لغاية الساعة العاشرة من صبيحة يوم ١٣ ديسمبر سنة ١٩٤٣ عن توريد أدوات المعامل الزجاجية اللازمة لمدارس الوزارة في العام الدراسي ١٩٤٣/١٩٤٤ ويمكن الحصول على قائمة المناقصة من إدارة التوريدات بشارع الفلكي بالقاهرة نظير دفع مبلغ مائة مليم ١٠١٩

٢١٥ ٢٧